قراءة في كتاب

لـذةُ النَّص

أشرف البطران

يعد رولان بارت[1] مَعلماً من معالم الحركة الأدبية في فرنسا، وواحداً من أهم المشتغلين بالنقد الفكري والأدبي، له إسهامات عديدة ومتنوعة، سيما في مجال نظرية النص مع زميلته جوليا كريستيفيا.

نظرية النص وموقع اللذة منها

قبل الخوض في تفاصيل هذه النظرية، نجد أنفسنا نقف أمام التساؤلات التالية: ما هو النص؟ وهل يوجد فيه شيء آخر غير المعنى؟ ثم ما علاقة المعنى باللغة؟

يعرّف أبو حامد الغزالي اللغة بأنها "لفظ دال بتواطؤ"؛ أي لا لغة في لفظ غير ذي دلالة، وبالتالي لا معنى. الإنسان بما هو كائن لغوي فهو يتكون بالنصوص ومن النصوص، لأن النص معنى، ولكنه كمعنى فقط يتحول إلى جسد بارد، تماماً مثل دمية عروس جميلة خالية من الحياة، إذن لماذا تغوينا النصوص أحياناً فنقرأها مرات عدة على الرغم من أننا أدركنا المعنى منذ القراءة الأولى؟ ثمة أشياء أخرى في النص غير المعنى. إننا أحيانا نعبر النص فنشمه ونتلمسه ونرى شخوصه ونسمعهم ونحاورهم. حينها يكون النص جسداً حياً، بل ضاجاً بالحياة، والنص بما هو جسد، فهو مادة للمحبة والكراهية والغواية والعشق. إذن، النص معنى، وأسلوب تعبير عن هذا المعنى المتوالد في نسيجه اللغوي.

إن نظرية النص في سياق اشتغالها تعتمد على مجموعة من العلوم: اللسانيات، المنطق، المادية الجدلية، التحليل النفسي، حيث ترى النظرية أن على المشتغل بالنصوص التمييز بين مفهومين، الأول خلقَة النص (بنية النص) وهو بشكل عام ما يَعْرض له التحليل البنيوي أو العلاماتي من أنظمة سردية، وبلاغية، وأسلوبية. والثاني تَخَلّق النص بما يمثله من علاقات متبادلة بين الكاتب والنص وبين القارئ والنص، من قبيل استكشاف المعنى والدلالات والتأويل واللذة. وفي سياق هذه الرؤية، فإن النصوص تشترط وجود أسس معرفية للكتابة والقراءة، لاسيما أن القراءة–القارئ– هو الغاية من وراء كل نص مكتوب، فعندما يصطدم النص بمتلقٍ سطحيٍّ سيكون في أحسن أحواله مستهلكاً لغوياً يتعامل معها بقراءة إسقاطية، نافياً بذلك مبرر وجوده كنص، وهذا يدفع به إلى التلبس والغموض، ومن ثم إلى المجهول، لأنه غير قادر على فك شفراته الأدبية، فالرؤية البارتيّة للنصوص تقتضي وجود قارئ جيد، قادر على سبر أغوار النص واستكشاف مواطن الإبداع والجمال فيه، من أجل الوصول إلى الإغراء والفتنة، الدهشة واللذة المحرقة التي تسكن تحت جلده، وتظهر آثارها عبر الإحساسات والانفعالات التي ترافق عملية القراءة، حيث تنطوي على تأويلات لمعنى النص، فهي إذن تؤثر في عملية تخلقه وتعطيه دلالات إضافية قد تكون غائبة من ذهن الكاتب، وبذلك يتحول القارئ إلى عنصر مشارك في عملية صياغة النص واكتمال نضوجه.

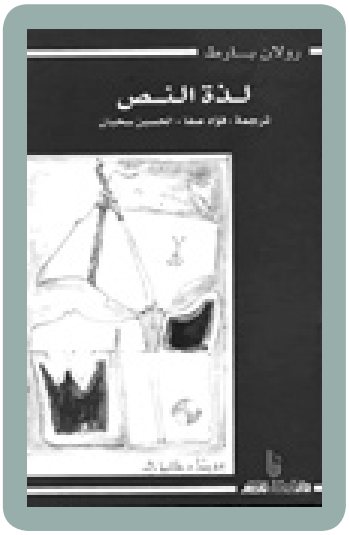

تاريخية مفهوم لذة النص

يعتبر رولان بارت أول من كتب ونظّرَ لمفهوم لذة النص بطريقة تعبوية دفاعية، على الرغم من أن كثيراً من المفكرين سبقوه بالإشارة إلى هذا المفهوم تلميحاً وليس تصريحاً من قبل برتولد بريخت. وأيضاً، في التراث الأدبي العربي نجد أن أبا الفتح ابن جني أشار إلى مفهوم لذة النص، يقول المتنبي "إن بن جني أدرى بشعري مني لأنه يحب ويعقل"؛ بمعنى أنه يتعقل النص الشعري باستكشاف المعنى، وكذا يحب أن ينسج علاقات غرام وهيام وحب مع النص.

أيضاً، أشار محيي الدين بن عربي إلى هذا الموضوع في كتابه **الفتوحات**، حيث قال: "إن الحروف أمة من الأمم، مخاطبون ومكلفون، وفيهم رسل من جنسهم، ولهم أسماء من حيث هم، وهم على أقسام كأقسام العالم المعروف، فمنهم عالم الجبروت، ومنهم العالم الأعلى، وهو عالم الملكوت، وفيهم عامة وخاصة الخاصة".

لا يفهم من توصيف ابن عربي إلا أن النص عالم وحياة وبشر وكائنات وأشياء، وليس مجرد كلمات

مرصوفة بدقة بارع نحوي. من هنا، يمكن القول إن ثمة علائق حب وغرام، وأحياناً كره تنسج أثناء فعل القراءة بين القارئ والنص اللذوي، هي تماماً كالعلاقة بين العاشق والحسناء؛ بمعنى أن فعل القراءة هو الذي يجعل النص مفتوحاً وقابلاً لإعادة الإنتاج، يملك قدرة أصيلة على استعادة ذاته بشكل متجدد من خلال عمليتي التفسير والتأويل.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا، لماذا نقول لذة النص ولا نقول متعة النص؟ في الواقع إنه من الصعب التفريق بين مفهومي اللذة والمتعة، وفي عمل بارت يتطابق المفهومان أحياناً، وأحياناً أخرى يتفارقان. لكن بشكل عام، المتعة حالة متقدمة عن اللذة، بمعنى أن المتعة هي اللذة في حالتها الأرستقراطية، لكن الثقافات المختلفة أطرت المفهومين بسمات تنتصر للمتعة على حساب اللذة، فالمتعة مشرعنة-حسية-صوفية، المتعة لفظ مهذب وأرستقراطي وابن عائلة، في حين أن اللذة محرمة-جسدية-شهوانية، اللذة لفظ دوني وابن شارع.

علاقة اللذة بالكتابة والقراءة

يرى بارت أن كل نص يقرأ بلذة فهذا يعني أن النص كتب بلذة. وهنا يتساءل بارت: هل الكتابة بلذة تضمن أن القارئ سيحظى باللذة؟ وجوابه عن هذا السؤال لا. إذن، على الكاتب أن يبحث عن القارئ ويغويه، الغواية دوماً مقترنة باللذاذة. الغواية هي بمثابة الفضاء المؤثث لنص الخطاب.

قراءة بلذة ← كتابة بلذة
كتابة بلذة + عناصر الغواية ← قراءة بلذة

وحتى يكون النص لذيذاً، يجب أن يخضع لشروط لذاذة النص، فالناسخ لكتابة نصه يستخدم لغة فطرية تلقائية غير ودودة. (امرأة مغناج ذات وجه حليبي ضاحك) (سيدة ذات وجه أبيض باسم)، إن النصوص-أية نصوص، إن هي أرادت أن تكون مقروءة كما يرى بارت، فإن شيئاً من العصاب ضروري لإغواء قرائها، مثل هذه النصوص المدهشة هي نصوص مغناج، فالكاتب يرفض أن يكون مجنوناً ولا يرضى في الوقت نفسه أن يكون سليماً بمفهوم التحليل النفسي، فيموضع نفسه في حالة من الهذيان، حالة وسطية بين السلم والجنون. فالكاتب هو المعصوب، والعصاب هو الإدراك الوجل لعمق المستحيل؛ بلغة أكثر تبسيطاً: النص يتولد في اللاوعي ويكتب في الوعي. يخالفه في ذلك باتاي حين يقول: إن النص يجب أن يولد من رحم الجنون، ولكنه ضد العصاب. دي ساد من ناحية أخرى يقول: إن لذة النص تتأتى من بعض القطيعات أو من بعض التصادمات بين ما هو سائد ومقنن ومشرعن، وبين ما هو مرفوض بمعايير العصمة الأكاديمية والمناهج المدرسية والأيديولوجيات المتزمتة. وبحسب نظرية النص، فإن القطع أو التصادم يرسم حافتين للمشهد، الحافة الأولى حافة هادئة ومطابقة ومنتحلة، ويتمثل ذلك في نقل اللغة في حالتها المقننة كما حددتها المدرسة وحسن الاستعمال والأدب والثقافة، وحافة أخرى صادمة متموجة وحرة. وهنا يتراءى موت اللغة؛ لأن القارئ يرى صوراً وليس كلمات، لأن الكلمات هي أصوات دالة على المعنى ولكنها في الوقت نفسه مفعمة بالانفعالات، فعندما نقول وردة فإننا نتصور الوردة واللون والرائحة واليد التي تمسك بها، إذن اللذة تنساح في مكان ما في النفس، تفل وتبضع وتشك وتهدم وتقوض في الذات، تخلق لدى القارئ حالة من التفاعل الحر مع عالم متخيل تنبض داخله الأشياء والشخوص والحوارات بالحياة، يعتمد ذلك كله على طبيعة السرد، فالسرد اللذوي له جمله وكلماته التي تمارس على القارئ فن التعري البطيء للغة من أجل الوصول به إلى عمق اللذة، وهذا يفترض بالنص أن يكون مشبعاً بالشهوة حتى يضمن عودة القارئ مرة أخرى، فالنص يجب أن يتشهى القارئ، حيث أن الكتابة هي علم متع الكلام، وبالتالي هو سرد متمهل صادم يبعث على النهم ولكن ببطء، ولا يريد القارئ أن ينتهي المشهد بعكس السرد التقليدي الذي يفرض على القارئ أحياناً القفز من أجل الوصول إلى النتيجة. إن حالة التفاعل والانصهار بين القارئ والنص تغني تجربة التلقي لديه، بحيث تأخذ أبعاداً تأملية وآفاقاً أرحب نحو الشمولية، بعيداً عن التجمد داخل أسوار منطوق الكلمات، فالنصوص ليست الحدث الوحيد الذي يحقق القيمة الجمالية، فهنالك أيضاً تفاعل المتلقي وردود فعله إزاء هذه النصوص، حين يتأملها ويشرحها ثم يحقق قيمتها الجمالية في شكل موضوع جمالي، يكون متجذراً في الوعي الجماعي أكثر من الوعي الذاتي، كما يرى يوس وإيزر رائدا نظرية جمالية التلقي.

موقف الأيديولوجيا من مفهوم لذة النص: لماذا دافع بارت عن هذا المفهوم؟

الأيديولوجيا كمفهوم وممارسة تعاني كثيراً من الإشكاليات والتعقيدات التي جعلت منها موضع خلاف دائم مع كل المشتغلين فيها، وعلى مر العصور، وهي ليست حداثية المولد والنشأة والفعل، بل قضية قديمة جديدة لم تغب عن تجليات الفعل الإنساني في حاضرة وماضيه، ولن تكون غائبة عن مستقبله في سياق هذا الطرح، فكما هو معروف فإن الأيديولوجيات، بما تمثله من أفكار ومبادئ وقيم يفرضها واقع معين في الحياة، تحاول فيه تسويق نفسها على أنها المنقذ والمخلص لكل المشكلات الحياتية العالقة، حيث تعددت وتنوعت طرق الترويج لذاتها في الأوساط الاجتماعية، ولطالما وجدت لها سبيلاً خصباً في التسويق محلياً والتصدير خارجياً للأيديولوجيات النقيضة عبر النتاجات الإنسانية الإبداعية، لاسيما في المجالات الأدبية والفنية، فلا غرابة إذا قلنا إن الأيديولوجيا حاضرة في كل النصوص والكتابات، وهذا ما يؤكده علم النص الحديث باستحالة الغياب الكلي للأيديولوجي والسلطوي، وإن لم تظهر آلية اشتغاله على السطح ففي ثناياه وطبقاته العميقة.

في غمرة الزحام الأيديولوجي المار عبر النتاجات الأدبية، ظهرت مناهج نقدية تعمل في سياق اشتغالها وتعاطيها مع النصوص بصورة موغلة في الأيديولوجيا، وبشكل تعسفي متحرر من كل القراءات النقدية العلمية لتلك النصوص. هذا التطور العشوائي للمذاهب النقدية الناطقة بلسان جميع الأطياف السياسية، من شأنها أن تفرض على النص ونظريته قانوناً تكون وظيفته الأساسية منع وحرمان أنفسنا من لذة رئيسية وتركها للفن السياسي.

إن التنظير الفكري المعاصر وما يقف وراءه من أيديولوجيات مختلفة، يكيف نفسه لواجبات أخلاقية تنفي مفهوم اللذة ومن ثم المتعة، وتعتبرهما من سقط المتاع، حيث يرى بارت أن اليمين كأيديولوجيا

يتبنى فكرة أن اللذة ضد التثقيفية، لأن اللذة هي رد فعل القلب ضد العقل، والإحساس ضد البرهان، والحياة الحارة ضد التجريد البارد. أما اليسار، فيضع المعرفة والمنهج والالتزام في مواجهة اللذة البسيطة، متناسياً بذلك لفافة التبغ الفاخرة لماركس وبريخت، ولكن ماذا لو كانت المعرفة نفسها لذيذة. لقد أجمعت الفلسفات والاتجاهات السياسية يمينها ويسارها على إهمال اللذة، على الرغم من أنها تنطوي على شعور بتماسك الأنا في سياق من الرضا والراحة والطمأنينة، نتيجة مؤثر في تفاعل مع الذات. نقيض اللذة هو الألم، وفي حالات الألم تنفسخ الأنا نتيجة تسلط واضطهاد الآخر. وفي حالة اللذة ينسى الإنسان هذا الآخر وقهره وينخرط في لذته.

إذا كانت اللذة لا يمينية ولا يسارية، هل معنى ذلك أنها تقف على الحياد، يبدو أنها غير قابلة للموقعة في مكان ما، لأنها تنبجس من مصادر عقلية وغرائزية؛ عقلية، مثل القراءة، والكتابة، والتلقي والفنون- وغرائزية، كالمشرب، والمأكل، والمرأة والجنس وما يرافقه من عمليات بيولوجية، نلاحظ أن كل غريزة ارتبطت بلذة ما. وهذا أمر ضروري حتى يحافظ الإنسان على بقائه. ولهذا، فان مهاجمة الأيديولوجيات لغريزية الإنسان بحجة أن هذه الغرائز حيوانية أمر فيه كثير من التعسف والظلم والقهر.

أشرف البطران
منتدى معلمي إذنا

الهوامش

[1] رولان بارت (2001). **لذة النص**. ترجمة: فؤاد صفا والحسين سحبان، ط2، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.

من المساقات الشتوية في أريحا.